بالطبع لا.

كيف وقد كانت الصلاة له قرة عين ومبلغ الراحة؟!

كيف وقد كان يصلي في كل وقت فرضا وسنَّةً ونافلة، حضرًا وسفراً، قبل نومه صلاة وبعد استيقاظه صلاة؟!

كان شكره صلاة، وصبره صلاة. فرحه صلاة وحزنه صلاة. رخاؤه صلاة وشدته صلاة. إذن لماذا " واصطبر عليها"؟

المقصود بالصبر هنا هو الصبر على نتائج الصلاة، الصبر على ثمارها، كانت الصلاة ولا تزال هي الفعل الأكثر تكرارًا في حياة أي مسلم.

جعلها الله العليم الحكيم أداة تغيير، هي الفعل القادر على تغيير سلوك وفكر من يقوم به، لكن هذا التغيير لن يحدث بين ليلة وضحاها لذلك جاءت "واصطبر عليها".

واصطبر عليها.

جاءت في سياق من الآيات تتحدث عن الصمود والمثابرة والصبر لتحقيق هدف معين (رسالة الإسلام والإيمان آنذاك) وعدم الاكتراث لنقد الناقدين وظواهر الأمور التي من شأنها تشتيت كل من يسعى إلى هذا الهدف.

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٠-١٣٢]

جاءت الصلاة بتكرارها كتدريب على الصمود والمثابرة من أجل تحقيق هدف هو الأسمى في تاريخ البشرية (نشر دعوة الإسلام) كان الساعي لهذا الهدف سيد الخلق - عليه الصلاة والسلام - لا يملك شيئًا من ماديات هذه الدنيا، صمد وثابر وحيدًا معتمدًا على الله القوي القدير في مواجهة أشرس البشر وأصلب الشخصيات، ليس ذلك

فقط، بل في مواجهة مغريات الحياة التي كانت تعرض له أو التي حُرم منها من أجل تحقيق هدفه.

نجح النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - في تحقيق هدفه بالصمود والمثابرة حتى خضع لرسالته أصلب وأعند الشخصيات مثل الفاروق عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، وظل الصمود والمثابرة صفة من صفات النبي - عَلَيْهِ السَّلَامُ- حتى فتح مكة.

نابليون هيل

"نابليون هيل Napoleon Hill" هو كاتب أمريكي مشهور، لن تجد شخصًا ناجحًا في مجال ريادة الأعمال الآن إلا وقد قرأ كتابه الأشهر (فكر تصبح غنيًّا – Think & Grow Rich) الذي طُبع عام ١٩٣٧، ولكنه ما زال يُباع حتى الآن، وقد صُنف ضمن أكثر الكتب مبيعًا على مر التاريخ.

استغرق نابليون هيل أكثر من ٢٥ عامًا لتأليف هذا الكتاب الذي اعتمد على البحث والملاحظة وتجميع المعلومات وتدوين الأفكار، بعد قيامه بمُقابلة ٤٠ مليونيـرًا في مجالات مُختلفة ليتعرف على الرابط المشترك ونقطة التلاقي بين جميع من استطاعوا تكوين ثروات ضخمة.

ففي بدايات القرن العشرين كلف الملياردير الاسكتلندي الأصل "أندرو كارنيجي Andrew Carnegie" الكاتب الصحفي الشاب "نابليون هيل" بأن يقوم بعقد مقابلات مع عددٍ كبيرٍ من المليونيرات في ذلك الوقت، وكان على رأسهم "أندرو كارنيجي" نفسه لكي يتعرف

على أسرارهم وينشرها في كتاب، حيث إن جميع هؤلاء المليونيرات قد بدأوا من الصفر، ولم يكن للصدفة أو الحظ دور في تكوين ثرواتهم.

فانطلق هذا الأخير ليلتقي بنخبة من الناجحين ومليونيرات ذلك الزمان، حيث التقى "هنري فورد" ملك صناعة السيارات، و"تشارلز شواب" مليونير الحديد والصلب، و"جون روكفولر" أغنى رجل في ذلك العصر، و"ثيودور روزفلت" الرئيس الأمريكي السابق، ورجل الأعمال "توماس أديسون" المُلقب بصاحب الألف اختراع، وغيرهم كثيرون؛ ليستخلص منهم آراءهم ورؤيتهم حول صناعة الثروة والمال، فهي روايات شخصية عن رحلة كفاح ونجاح وخطة تطوير الشخصية ووضع كل هذه الأسرار والمبادئ بشكل مرتب في كتابه Think&Grow Rich.

ذكر نابليون هيل صفة المثابرة Persistence كمبدأ من المبادئ الأساسية للنجاح في الفصل التاسع من كتابه، وكانت المثابرة بالفعل صفة مشتركة بين كل هؤلاء المليونيرات، لكن العجيب أنه عندما أراد نابليون هيل أن يعطي مثالًا عن صفة المثابرة ذكر النبي محمدًا – عليه أفضل الصلاة والسلام – وخصص له فقرة خاصة سماها:

"خاتم الأنبياء العظيم – The Last Great Prophet "

تحدث فيها كيف أن النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - أحدث هذا التغيير في البشرية رغم أنه لم يتلقَّ شيئًا من التعليم الاعتيادي في عصره، ولم يكن يستخدم المعجزات كأداة لنشر رسالته كما حدث مع الأنبياء من قبله، أيضًا لم يكن شخصًا غنيًّا أو صاحب نفوذ وسلطة. ومع ذلك ففي سنوات قليلة خضعت الجزيرة العربية كلها لرسالة النبي الكريم سيدي -عليه أفضل الصلاة والسلام- بفضل مثابرته على تحقيق غايته ونشر رسالته.

المثابرة تلك الصفة التي أراد الله العليم الخبير أن يودعها في نفس نبيه الكريم - عليه السلام - حتى يستطيع تحقيق هدفه، جاءت الصلاة بكل ما فيها تدريبا يوميا لصقل صفة المثابرة في نفس كل من يريدها.

لذلك جاءت "واصطبر عليها" لأن ثمار الصلاة لا تُحصد بين ليلة وضحاها، وجد ثمارها النبي -عليه السلام- في كل عقبة واجهها، ففي كل محنة كانت الصلاة هي المعين له على المثابرة. فسقطت أمامها كل المحن وزالت معها كل العقبات.

إقامة إنسان

الغرض من إقامة الصلاة هو إقامة إنسان، ذلك التأثير البسيط اليومي المُتكرر الذي تضيفه الصلاة إلى شخصية المصلي يؤدي إلى إقامة إنسان جديد مع الوقت.

الصلاة، بهذا المعنى، هي دورة تدريبية للنفس تستغرق عمرك بأكمله، تلتزم بحضورها خمس مرات كل يوم، إن أردت أن تستقيم لك حياتك فاستقم في حضورها واخشع في أدائها.

كنت أتحدث مع أحد أبطال العالم في رياضة كمال الأجسام وسألته عن التمارين التي يمارسها حتى تغير شكل جسمه إلى هذه الدرجة حيث كان منكبه عريضًا، وخصره نحيفًا، فأخبرني عن بعض التمارين التي كنت أعرف معظمها تقريبا ولكنه أضاف معلومة مهمة في آخر الحديث.

أخبرني بأن هناك عاملًا يغفل عنه الكثير ممن يسعون إلى تغيير شكل أجسامهم، ذلك العامل هو الوقت، نعم أخبرني بأن هذا الجسم المثالي استغرق سنوات من التدريب اليومي حتى يصل إلى هذه الصورة!!

كما أن تغيير الجسد يحتاج إلى الصبر والتدريب اليومي لسنوات، فإن تغيير شخصية الإنسان وسلوكه وإقامة إنسان مختلف يحتاج أيضًا إلى الصبر والتدريب اليومي، لذلك جاءت الصلاة وجاء معها "*واصطبر عليها*".

يحضرني هنا مشهدان للفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أولهما قبل إسلامه والآخر بعده.

المشهد الأول يصوّر لنا تلك الشخصية الصلبة ذات الطابع الغليظ، داخل تلك الشخصية رفض عمر حتى النقاش مع أخته التي أعلنت إسلامها وانهال عليها ضربًا حتى سال الدم من وجهها، في ذلك الوقت لم يكن عمر أميرًا أو رئيسًا حتى لم يكن له حق التدخل بهذه الصورة في اختيارات أخته التي كانت لها حياتها الخاصة، مع العلم أن هذا المشهد كان في بيت أخته على مرأى ومسمع من شخصين أو ثلاثة.

في *المشهد الآخر* يقف أمير المؤمنين عمر رئيس أقوى دولة في ذلك الزمان على منبر رسول الله - ﷺ - مخاطبًا المسلمين في مسألة تتعلق بمهور النساء فتقاطعه امرأة على مرأى ومسمع من حضور المسلمين وتعدِّل عليه رأيه؛ فيصمت الفاروق - رضي الله عنه- بالرغم من أن مقاطعة الخطيب ليست من الأدب ولا تجوز، وكان يحق لعمر أن

يُسكِت هذه المرأة إن أراد، ولكنه قال أمام حضور المسلمين: "أصابت امرأة وأخطأ عمر. كل الناس أفقه منك يا عمر"!!

بين المشهدين نرى ثمرة "واصطبر عليها" واضحة جلية، فلولا ذلك التأثير الذي تضيفه الصلاة يومًا بعد يوم في نفس وسلوك كل مُصلٍّ لما اختلف "عمر قبل" عن "عمر بعد". فاصطبر عليها.

ينبغي لنا أن نأخذ الفاروق عمر بن الخطاب نموذجًا لما يجب أن تفعله الصلاة بنا، فقد استطاع الفاروق أن يجعل من الصلاة وسيلة لتغيير العالم، لقد وعاها وفهمها كما يجب أن تكون، لذلك فقد كانت إقامته للصلاة مختلفة تمامًا عن تصوراتنا للصلاة، فقد انتقل بصلاته ليربطها بالواقع ليطابقها مع الهدف الذي عزم على تحقيقه وهو تغيير الواقع.

ومن هذا التطابق جملة قالها عمر الفاروق نُقلت لنا عنه من داخل صلاته، قال: "إني لأُجهز الجيوش في صلاتي".

كانت صلاته تمده بتلك الطاقة حتى تجعله يرتقي، يرتقي بنفسه أولًا ومن ثم يرتقي بالواقع فيغيره، فقد كان يعرف وهو يقيم الصلاة أن مهمته تحويل القيم من صلاته إلى واقع يعيشه العالم.

(١٤)هكذا عرفته

ماذا لو أن الشخص المسؤول عن المكان الذي تعمل فيه، مالِكه أو مديره، هو شخص شديد القرابة منك، بل يحبك حبًّا شديدًا، لك عنده معزَّة خاصة، وجاء أحد العاملين أو الموظفين في هذا المكان ووجه إليك تهديدًا من نوعٍ ما، مثلًا أنه سوف يعزلك من عملك.

إن قابلت هذا التهديد بابتسامة سخرية فلن يلومك أحد، فمالِك هذا المكان ومديره لن يرفض لك أي طلب تطلبه تجاه هذا الموظف أو العامل الذي لا يملك من أمرك شيئًا.

وإن قابلت هذا التهديد بشيء من الخوف أو القلق فسيتهمونك بالبلاهة أو الجنون، فكيف لك أن تقلق ومالِك هذا المكان قريب منك ويحبك وأنت عزيز عليه؟!!

وماذا لو أن كل أمر في حياتك، صغيره وكبيره، مفتاحه مع شخص ما.

تلك الوظيفة التي تتمناها، هناك شخص ما يستطيع أن يؤمنها لك، ذلك الدَّين الذي أرهقك، هناك شخص ما سيدفعه عنك، الخلافات التي لا تنتهي بينك وبين زوجتك، يوجد شخص ما يستطيع أن يسويها.

لو أن هذا الشخص قريب منك ويحبك، كيف ستبدو حياتك؟؟

لو أن الحياة ستكون على هذه الشاكلة، فلا داعي للخوف أو القلق أو الحزن، فكلما أصابك أمرٌ ما، ذهبت إلى ذلك الشخص الذي يملك مفتاحه فكفاك إياه، لن يضرك إن اجتمع عليك كوكب الأرض كله.

هل تعلم أن الحياة التي ينبغي عليك أن تحياها هي تلك الحياة؟!!

حياة بلا خوف وبلا هم وبلا حزن. نعم. هكذا أراد لك مالِك هذه الدُّنيا مقابل أن تتصالح معه فقط، أن تطيع أمره وهو يكفيك كل شيء، لله المثل الأعلى وليس كمثله شيء، كما أن رب العمل لحبه الشديد لك ولقرابته منك يقدر على طرد هذا الموظف الذي وجه إليك تهديدًا، رب العالمين إن أحبك كفاك كل شيء.

الله أكبر

ولأن الإنسان كثيرًا ما ينسى تلك الحقيقة، جاءت الصلوات لتُذكره بها وتكررها عليه مرارًا وتكرارًا، فلا تصح الصلاة إلا بتكبيرة الإحرام حيث يبدأ المصلي صلاته بقوله: "الله أكبر"، وكأنها تذكير بأن كل ما أهمك أو أخافك أو أحزنك قبل الصلاة لا مكان له هنا، فالآن قد جئت للذي هو أكبر منه.

تمامًا كما يجري الطفل على والده إذا رأى ما يخيفه أو يحزنه، وليس كمثله شيء سبحانه، فأنت تفر إلى الله تعالى مع كل صلاة حتى ترسل رسالة للدنيا كلها بأن:

"الله أكبر".

رب العالمين

ثم تقرأ أول ما تقرأ في صلاتك، أول آية في الفاتحة أم القرآن، السورة الأكثر تكرارًا في حياة أي مُصلٍّ:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة: ٢]

فهل علمت لماذا تحمد الله تعالى في بداية صلاتك وكل ركعة تركعها؟

تحمده لأنه هو رب العالمين.

رب كل شيء.

رب الملوك ورب الرؤساء.

رب العباد ورب الشركات والأموال.

رب الزوجات والأولاد.

وكأنها رسالة منك ولك، هل تعرف طبيعة تلك الرسائل التي تحدث بها نفسك لتطمئنها أو تحفزها أو تقوي بها ثقتك؟، هذه الرسالة

هي أعظمها، وكأنك تقول لنفسك: اهدئي واطمئني فأنا الآن أمام رب العالمين.

فالحمد لله أنه هو رب العالمين، أترى لو أن هناك شريكًا لله سبحانه في ملكه -تعالى الله عن هذا علوًا كبيرًا- سيكون الله سبحانه وتعالى رب العالمين إلا هذا الشريك.

لذلك قال الله العظيم:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١١]

نعم. الحمد لله ربي الذي لا شريك له ولم يكن له وليٌّ من حاجة أو قلة.

فهم سيدنا هود - عليه السلام - معنى رب العالمين فتحدى بها قومه قائلًا:

﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾

[هود: ٥٥-٥٦]

رجلٌ واحدٌ يتحدى قومه كلهم أن يكيدوا له ولا يخشاهم، ليس هذا فقط بل يسألهم أن يعجلوا له بالكيد، لأنه علم أن لا أحد يملك أمره إلا رب العالمين، تلك هي الثقة التي يجب أن تغمر كلًّا منا كلما قرأنا: "الحمد لله رب العالمين".

الحمد للّٰه رب العالمين الذي عرّفنا قدر كل من هم دونه أيا كانت قوتهم أو مناصبهم أو عُدتهم أو أموالهم، وكان وصف القرآن عجيبًا لهم حيث قال الله العزيز:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ ﴾

[فاطر: ١٣]

القطمير هو الغشاء الرقيق الموجود على نواة التمرة، تلك التمرة التي غالبًا ما تسقط من فوق نخلة حيث تُصبح مجانية لمن التقطها (إن كانت النخلة لا تنتمي لبستان شخص ما).

يصف الله العزيز كل من ندعوه من دونه أيا كان هو بأنه (ما) يملك حتى هذا القطمير الذي لا يكاد يُرى حول نواة تمرة لا يشك من يحملها أنها ملكه ملكية تامة.

وما يدعو للتأمل هو استخدام لفظة (ما) للنفي وليست لفظة (لا)، عندما تُستخدم (ما) للنفي تفيد نفي الواقع في الحال، أما (لا) فتفيد نفي المستقبل بمعنى أنهم يمكن ألا يملكوا هذا في المستقبل ولكنهم يملكونه الآن، لذلك كانت (ما) بدلًا من (لا).

فقل الحمد لله رب العالمين.

فمثلًا لو سألتك أن تقترض مالًا من فلان الذي يجلس بجانبك وأنت تعلم أنه فقير مُعدم فستقول: (فلان ما يملك المال) أي أنه لا يملك شيئا الآن، نفي في الحال.

لذلك إذا حدثتك نفسك بأن تسأل فلانا لأنك تراه الآن يملك منصبًا أو مالًا أو سلطانًا، فرب العالمين يخبرك أنه (ما) يملك من هذا شيئًا،

فالحمد لله رب العالمين.

ضرب لك مثلًا حتى تعرف كيف تحيا تلك الحياة بطمأنينة وسكينة، فقال تعالى في سورة النحل:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾ [النحل: ٧٥]

العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو أي عبد لله تعالى في هذه الدُّنيا أيا كان منصبه، رئيس أعظم دولة أو مدير أغنى شركة أو قائد أقوى جيش، وصفهم الله القدير بأنهم لا يقدرون على شيء، لأنهم مملوكون لله العزيز الذي له ملكوت كل شيء..

فكيف لك أن تساوي بين هؤلاء العبيد المملوكين وبين مالكهم وربهم القادر على كل شيء؟!!.

حكاية الدُّنيا

يتحدثون دائمًا عن الحياة الدنيا بأنها دار شقاء، ومنزل ترح، لا تخلو من الهم والحزن والغم، نعم، نعم هي هكذا، وهكذا خُلِقت، ولكنهم لم ينقلوا لك الصورة كاملة، لم يكملوا لك حكاية هذه الدنيا.

ما لم يخبروك به هو أن رب هذه الدنيا والمُهيمن على كل شيءٍ فيها قال لك:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ ﴾ [المعارج: ١٩-٢٣]

نعم هي الدنيا بها ما بها من الهلع والجزع والكِبر، بها ما بها من الهم والحزن والخوف، لكن إن كنت من المُصلين المحافظين على الصلاة كما أرادها رب العالمين، فأنت مستثنًى من هذا كله، هكذا أخبرنا خالق هذه الحياة الدنيا ولا أحد أعلم منه سبحانه.

ما لم يخبروك به هو أن رب هذه الدنيا وخالق كل شيءٍ فيها أرسل رسالة استفهامية تقريرية لكل نفس على وشك أن تنسحب أو تيأس أو تجزع في معركتها مع هذه الدنيا إذا عصفت بهم مصائبها فقال القدير:

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل: ٦١]

أمن جعل الأرض قرارًا، من أقر هذه الأرض التي تمشي فوقها فجعلها مُستقرة مطمئنة لبلايين السنين قادر على أن يربط على قلبك ويغمرك بطمأنينة تكفيك لمواجهة أحزان هذه الدنيا كلها، وإذا ربط الله القوي المتين على قلبك فما يضرك؟!!

وجعل خلالها أنهارًا، من فتح هذه الأرض وجعل خلالها أنهارًا تجري إلى يوم القيامة قادر على أن يفتح لك كل بابٍ مغلق فهو عليه أهون، وإذا كان الله الفتاح معك فما يضرك إن كانت أبواب هذه الدنيا كلها مغلقة؟!!

وجعل لها رواسي. من ثبت هذه الأرض بالجبال العظيمة قادر على أن يثبتك في مصيبتك فهو عليه أهون، وإذا ثبتك الله في مصيبتك فما يضرك؟!!

وجعل بين البحرين حاجزًا. ربٌّ حجز بحرين بعضهما عن بعض، ماء وماء ولكن لا يطغى بعضه على بعض بدون أي وسائل عزل خارجية، أليس بقادر على أن يحجز عنك كيد الكائدين وحسد الحاسدين؟!!

تذكر هذه الآيات دائمًا عندما ترهقك هذه الحياة الدنيا، وكلما همست إليك نفسك أن تجزع أو تيأس اتلُ عليها الآية التي تليها:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل: ٦٢]

صدق ربي العظيم، نعم! جاءت هذه الآية بعد آيات تتحدث عن خلق الأرض والأنهار والجبال والبحار حتى تطمئن.

ربما يضيق عليك صدرك أحيانًا، ربما تُغلّق أمامك أبوابٌ، ربما نتعرض لفتن تظن أن لا طاقة لك بها، هذا هو حال الدنيا الذي خُبرنا به. لكن رب هذه الدنيا أرسلها لك مباشرة واضحة:

﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ [النمل: ٦٠]

هو خالق هذه الدنيا وهو الواحد القادر أن يكفيك شرورها ومصائبها. إذن فلتكن الدنيا كما تكون، لا تهتم لها، وإن جارت عليك اشتكها لربها ومالكها، وإن أردت طيبها فاسأله من باريها.

لماذا الابتلاء؟

ولو كان الأمر هكذا إذن فلماذا هذه الابتلاءات التي يسوقها لنا الله الحكيم واحدة تلو أخرى؟!

الحكمة من الابتلاء هو الاضطرار، أن تلمس المستحيل قياسًا على الحسابات المادية ونظرة البشر المحدودة للأمور فتضطر إلى أن تفر إلى الله (إن أردت) فيُصبح المستحيل ممكنًا فتشعر وكأنك ولي من أولياء الله في الأرض، لأن مع الاضطرار وسؤال الله القوي المتين يأتي التمكين، أي أنك إذ كنت مضطرًّا فلجأت إلى الله الواحد الصمد فكشف ما بك من سوء فأنت الآن في طريقك إلى أن تُمكّن:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢]

سيجعلك من خلفاء الأرض بعد أن كنت مضطراً، معادلة بسيطة تتكون من شرطين، الاضطرار ثم الدعاء، لكن أكثرنا إن كان مضطرا سأل غير الله سبحانه وتعالى، أو إذا أراد أن يسأل الله السميع القريب، أتى بشخص يدعو له فضاعت المعادلة وضاع التمكين.

أيضًا (الله أكبر) تلك التي تفتتح بها صلاتك تكون مختلفة في الشدة عنها في الرخاء، تكون عالية مدوية في السماء حتى وإن بدت ساكنة هادئة على الأرض.

الابتلاء هو الذي يعيد ل(الله أكبر) قدرها في نفوسنا قبل أن تصبح كلمات باردة نقولها ونحن لا نشعر بها، فلتكن الدنيا كما تكون، وليكن الناس كما شاؤوا، ولتكن أنت مع (الله أكبر) كلما أرادت الدنيا أن تبدأ معركة جديدة عليك، لن يُرهقك ابتلاء ما دمت متكئًا على (الله أكبر).

وكيف لنا أن نشعر بجلالة (الحمد لله رب العالمين) من دون ابتلاء في زمن ألفنا فيه النعم، نستيقظ وقد أبصرنا وسمعنا ومشينا وأمِنَّا فيسألنا أحدهم عن حالنا فنقول: لا جديد!!

تهبط الطائرة بسلام وكنا قبل دقائق في موضع أقرب فيه للموت من الحياة، فتجدُنا نخلع أحزمة الأمان بتأفف وننظر إلى هواتفنا متذمرين بدلًا من أن نسجد شكرًا للذي قال عن ذاته سبحانه:

﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ ﴾ [الملك: ١٩]

لهذا وأكثر كان لا بد من الابتلاء حتى نعي قوله (الحمد لله رب العالمين) التي تخرج في أبهى صورة لها بعد ضيق كاد يخنقنا وكأنها جلسات كهربائية تنعشنا حتى لا نفقد وعينا الإيماني.

لربما أخبروك أن الحظ السيئ هو نصيبك في هذه الحياة الدُّنيا وأن سعادة الحظ ليست قدرك.

أولئك الذين لم يفهموا عن الله الرزاق الفتاح الذي أهدى لك معادلة الحظ واضحة بسيطة من دون تعقيدات.

إذا أردت أن تكون محظوظًا فعليك بالتقوى دع كل ما أخبروك به عن الحظ واسمع من العليم الخبير قوله:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾

[الطلاق: ٢-٣]

اعبد الله كأنك تراه تكن محظوظًا موفقًا، هكذا وعدك خالق هذه الدُّنيا وزوال هذه الدُّنيا أهون على خالقها من ألا يحقق وعده لك.

فهو يشفين

وأحيانًا تلعب معك الدنيا لعبتها فتجد نفسك مُصابًا بمرض خارج الحسابات، تلك الحسابات التي أعددتها وخططت لها مُعتبرًا أن معامل الصحة فيها آمنٌ لن يمسَّه سوء، نعم هكذا خُبرنا عن هذه الدُّنيا ومفاجأتها غير السارة لنا.

لكن مالك هذه الدُّنيا والمهيمن على كل شيء فيها أخبرنا على لسان خليله إبراهيم -عليه السلام-:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ ﴾ [الشعراء: ٨٠]

فلتكن الدنيا كما تكون بغلظتها وقسوتها ولتكن أنت مع هذا الذي بيده شفاؤك، مع الرحيم الودود الشكور الحميد اللطيف القدير.

يُخبرنا الشيخ الطبيب عبد المحسن الأحمد أن امرأة عمرها ٤٢ سنة دخلت عمليات القلب تمشي على قدميها تُبصر تسمع تنطق، لكن توقف قلبها وسط العملية فجأة فأنعشها الأطباء، عاد قلبها للنبض. لكن

خلال عملية إنعاش القلب تعطل وصول الدم للمخ لمدة ثلاث دقائق فقط فماتت خلايا المخ - الحمد لله رب العالمين الذي يضخ الدم لخلايانا من دون حول منا ولا قوة -

يقول الشيخ الطبيب: إن خلايا المخ إن ماتت لا يحييها إلا الذي خلقها أول مرة، خرجت المرأة من العملية لا ترى لا تسمع لا تتكلم لا تمشي لا تتحرك.

لمدة تسعة أشهر والمرأة على هذا الحال، ميتة دماغيا، جثة هامدة بقلب ينبض تتنفس بفتحة في الحنجرة.

وبينما كان يمر ليلًا أحد الأطباء العارفين بالله ممن فهموا كيف يتعاملون مع هذه الدُّنيا، وجد ابن هذه المرأة يبكي بكاءً شديدًا فسأله فقال الابن: إنني حزين لأنني لن أكلم أمي إلا يوم القيامة، فسأله الطبيب عمن أخبره هذا، فأخبره الابن أن كل أطباء المستشفى يقولون بأن أمه لن تتكلم ولن تتحرك إلى أن تموت.

قال الطبيب الفاهم عن الله العليم الرحيم: هل خلق لها أيٌّ من هؤلاء خلية مخ واحدة؟؟! فليقولوا ما شاؤوا ولنسمع نحن للعليم الخبير القائل:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ١٧]

ثم بدأ يقرأ آيات عجيبة على تلك الجثة الميتة دماغيا، قرأها يقيناً بالذي خلق كل شيء، بدأ بفاتحة الكتاب ثم قرأ آيات من سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٩]، وهو يقول يا رب هذه فقط خلايا ميتة ليست عظامًا ولا رُفاتا.

ثم أكمل رد الله البارئ على هؤلاء الذين يشككون في البعث فقرأ ﴿ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ ﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١].

يقول الله العظيم: حتى لو كنتم شيئا لا ينتمي لخلقة البشر كالحجر والحديد، بل تخيلوا أي شيء تظنون أنه مستحيل على قياسكم أن يُبعث بشرًا. وكأنها رسالة للأطباء الذين قالوا بأن خلايا مخ تلك المرأة ستظل ميتة.

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء: ٥١]

قرأها وهو يستبشر بعسى أن يكون قريبًا.

ثم قرأ آيات أخرى من سورة الروم:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم: ٢٥]

قرأها وهو يقول: سبحانك ربي، تقوم السماء والأرض كلها بأمرك، ألا تقوم هذه المريضة؟!!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم: ٢٧]

قرأها وهو يناجي ربه: يا رب لا أسألك الخلق كله، يا رب أسألك خلايا هذه المسكينة.

ثم قرأ آيات من سورة البقرة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

قرأها وهو يقول: يا رب أسألك أن تُحيي هذه المرأة الميتة دماغيا.

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾
[البقرة: ٢٥٩]

قرأها وهو ينظر للأشعة المقطعية لخلايا تلك المرأة وكيف أن خلايا المخ بدت وكأنها خاوية على عروشها.

قرأها وهو يقول: يا رب أمتّ الرجل مائة عام ثم أحييته، هذه الخلايا ميتة تسعة أشهر فقط يا رب.

قرأها وهو يقول: يا رب قال الطب بأن الخلايا ستظل ميتة إلى يوم القيامة، لكنك على كل شيء قدير.

قرأ ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩] وهو يتخيل أن الله القدير يحيي هذه الخلايا.

قرأ هذه الآيات ثم نادى على تلك المرأة فهزت رأسها.

طلب منها تحريك أطرافها ففعلت.

ثم فتحت عيونها فانكب ابنها يقبل قدميها بينما تصيح الممرضة (غير المسلمة).

والقصة موثقة في مركز الأمير سلطان لأمراض الجراحة في القلب في المستشفى العسكري بالرياض.

أُعيدها عليك.

فلتكن الدُّنيا كما تكون ولتكن أنت مع الله الذي هو على كل شيء قدير.

فعال لما يريد

أن يُحكم عليك بالقتل قبل أن تُولد، حدث هذا وما زال يحدث في دور تتفنن فيه هذه الدُّنيا بفرض قساوتها، حيث يرى أحد الملوك مُهَوَّسين الحكم رؤية تنبئه بزوال مُلكِهِ على يد رجل يولد في عصره فيأمر بقتل كل مولود ذكر.

أَترى كيف كان حال أمهات تلك الفترة؟ ليس غريبًا على هذه الدُّنيا فهذا ما عرفناه من طباعها، أيضًا ليس غريبًا على الله القوي – سبحانه وتعالى- أن يُسقِط مخططات الدُّنيا كلها، فهو مالكها بل وهو خالقها.

ربما كان أهون على أمهات تلك الفترة أن يُقتَلن بدلًا من أطفالهن؛ فشعور الخوف تملك منهن لا محالة مُساويًا بين قتلهن أو قتل أطفالهن، لكن مرارة الحزن والأسى زادت في الثانية فجعلت الأولى أهون وفي كلٍّ حالة نادرة من الذعر والخوف.

كان هذا مصير طفل لم يولد بعد، كان هذا مُخطط الدُّنيا له الذي بدا وكأنه لا مفر منه حتى دخل مُعامل جديد في الحسابات، هذا المُعامل قادر على أن يقلب أي مُخططات أينما وُجِد.

حب الله. أحب الله القوي هذا الطفل - وقد علمت كيف يحبك أنت أيضًا- فتغير كل شيء، نعم هو طفل لا حول له ولا قوة، وكذلك أمه امرأة ضعيفة لم تُشفَ بعد من ولادته، لكن ليس المهم من هو أو من يكون، لكن المهم من معه؟!! فهو الآن معه الله القوي المتين.

كان قلب أم موسى -عليه السلام- يهلع كلما صرخ أو بكى، وكانت تحاول أن تُسكته بشتى الطرق، فالتفاتة واحدة من جنود فرعون تُنهي حياة طفلها.

سيطر هذا الهلع والخوف على قلب أم موسى -عليه السلام- حتى جاءتها رسالة من الحي القيوم الذي يعلم كل شيء وله كل شيء، ماذا كانت تحوي هذه الرسالة؟

كانت تحوي نوعًا من التحدي يفوق قدرات استيعاب البشر، رسالة تأمرها أن تُلقي بابنها في البحر إذا اشتد خوفها عليه!!

ذلك البحر الذي يخشاه الرجال الأقوياء الأشداء، الذي ربما يخشاه جنود فرعون أنفسهم، سيُلقى فيه طفل رضيع لا حول له ولا قوة، وكأن الرسالة هي: لا يهُم من أنت، لكن المُهم من معك:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: ٧]

ونرى هنا قانون الاضطرار يعيد نفسه، لقد ذكرنا أن الاضطرار يأتي بعده تمكين، وها هو ذلك الطفل الرضيع الذي حُكم عليه بالقتل قبل أن يولد ينجيه الله القدير ليجعله من المُرسلين.

والعجيب أن أول النهار كانت تخاف أم موسى أن يصرخ ابنها فيقتله فرعون وجنوده. آخر النهار موسى في قصر فرعون يصرخ بملء فيه وفرعون يبحث: كيف يرعاه ويأتي له بالمُرضعات:

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ ﴾ [طه: ٣٨-٤٠]

هذا الإله العظيم الذي طمأن أم موسى -عليه السلام- وهي في حالة نادرة من الهلع والخوف ب: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص: ٧]، هو نفسه الإله الذي أرسل لي ولك: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]، حتى يطمئن قلبنا ونجتهد في تزكية أنفسنا دون حاجة لسؤال البشر.

وهو نفسه الإله الذي أرسل لنا: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] حتى نحيا حياة سعيدة ونُخرج من حساباتنا مفاهيم الحسد والسحر والجن، ونعلم أن لا شيء يصيبنا إلا بإذن الله العزيز فنجتهد في طلب حبه.

فلتكن الدُّنيا كما تكون، وليُدبر لك الناس كما شاؤوا، ولتكن أنت مع الله الجبار الذي نجّى موسى -عليه السلام- بالبحر وهو طفل لا حول له. وجعل نفس البحر هو سبب هلاك فرعون وجنوده وهم في أبهى صورة لهم وأقوى عُدة لهم حتى تعلم أنه إن كان الله معك فمن عليك؟!!

السر

أباح نوح -عليه السلام- بالسر بعد أن استنفد كل الطرق في هداية قومه، ٩٥٠ سنة من الدعوة لم تؤت ثمارها، فقرر نوح -عليه السلام- أن يبوح بالسر كآخر أداة يملكها عسى أن يكون سببًا في هداية قومه.

رغم أن هذا السر حوى كل ما يريده ويرجوه ابن آدم في هذه الحياة الدُّنيا وجعل هذا مرتبطًا بعلاقة خاصة مع خالقه يحكمها شرط إن أخذ به ابن آدم جاء جواب الشرط تحقيقًا لما يرجوه ويحلم به.

إلا أن قوم نوح -عليه السلام- استهانوا بهذا السر ولم يأخذوا بشرطه وأصروا أن آلهتهم قادرة على أن تحقق لهم أحلامهم فأُغْرِقوا جميعًا.

والعجيب أن الله الكريم الودود أرسل لنا هذا السر في رسالة مباشرة واضحة دون انتظار منا لمئات السنوات، أراد الله ﷻ لنا أن نعلم هذا السر الذي ربما كان مخصوصًا به الأنبياء فقط فجعله في كتابنا متاحًا لكل من يأخذ به.

والأعجب أن رد فعلنا لم يكن مختلفًا عما فعله قوم نوح -عليه السلام- فاستهان الكثير بهذا السر وذهب كلٌّ لإله خفي نصبه لنفسه يسأله تحقيق مراده.

أخبرنا القرآن الكريم على لسان نوح -عليه السلام-:

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ ﴾ [نوح: ٩]

وكأنها آخر أداة يريد أن يجذب بها قومه للإيمان.

فجاء الشرط: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ [نوح: ١٠]

الاستغفار هو طلب الغفران بصدق من الله الغفور أيا كانت صيغته.

جواب هذا الشرط ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ [نوح: ١٠] هو تقريبًا كل ما يتمناه ابن آدم في هذه الحياة الدنيا:

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢ ﴾ [نوح: ١٠-١٢]

هذا وعد ممن له خزائن السموات والأرض، ذكرت قبل ذلك أن زوال الدُّنيا أهون على الله العزيز من ألا يحقق وعده، فلتكن الدنيا التي خُبرنا عنها كما تكون، ولنكن نحن مع وعد الله الودود لنا. نستغفره فيتوب علينا ويعطينا زينة هذه الدُّنيا.

عرفته فعشقته

لا تجتهد لتصلي، بل اجتهد لتتعرف على الله فتشتاق للصلاة

(١٥)خاتمة عاشق

لكل من اشتاق لذلك النور في حياته المظلمة
ولكل من يبحث عن سلام يداوي به هلع نفسه
ولكل من أسرف على نفسه
منتظرًا أمطار الغفران تعيده إلى رشده
فر لبوابة الصلاة.

من بوابة الصلاة تستطيع أن تخرج من كهف ذاتك إلى سماء روحك فتُحلق في نسيم الأُنس بالله. تنهل منه نورًا لحياتك المظلمة، وسلامًا لنفسك الكئيبة، ورضوانًا مضيئًا تحرق به ذنوبك!

ليس لك إلا أن تفر من أغلالك قاصدًا بوابة الصلاة فتنظر إلى نفسك من مرآة هادئة، لا انفطار فيها ولا اعوجاج فتمد بصرك الحائر إلى أفق أبعد من مدار النظر فيما وراء النظر. فتجد نفسك وتحتضن

قلبك الذي كان تائهًا يبحث عن حياة لم يحْيَهَا فتعلم أنك في حضرة الصلاة!

وفي حضرة الصلاة تعرج أجنحة نفسك بعيدًا عن برك الهموم والأحزان، فأبواب السماء تُفتح لاستقبال تلك اللحظات النورانية.

بينما يدبر إبليس مختبئا من ذلك النور الذي يخترق الآفاق. فتتحرك قلوب الكائنات كلها، وترتفع أعينها إلى السماء فترتوي أرواحها بذلك المدد الإلهي.

ها أنت إذن تدخل خلوة الإيمان مفارقًا تيه الوحشة والضياع، مستقبلًا مقام الأنس بذكر الله الجليل فشد ثيابك إلى أعتابه وذق من كؤوس التعبد نورًا وسلامًا وغفرانًا. واحذر أن ينجرف بصرك فتلتفت فيلتفت!!

وأني لعبد في مقام الخشوع أن ينصرف عن مشاهدة الجمال، كل شيء يتلاشى، الساعة خلفك، حتى فكرك يتألم إذا اختلف عن الضياء المُتجلي للخاشعين، قلبك مفتوح الأبواب لا تخفى منك خفقة قلب واحدة، فالجليل مُقبلٌ عليك ناظرًا إليك.

إن عبادة فُرضت في السماء بغير واسطة الملاك، لجديرة بالارتقاء صعدًا بعشاقها إلى مقامات السماء. فاصطبري يا أبدان على إدامة التطهر، فإن غصنًا ينبت في جوار الغدير لا يجف أبدا، إن لم ينل من فيضه، نال من نسيمه ونداه، وللطريق مكاره لا يطفئ لهيبها إلا أمطار الصبر، فالاصطبار ثمرة من شجرة الافتقار إلى الله.

ولفاتحة الكتاب عجائب تذوب معها الأماني المستحيلة، تنفض عن كاحلك كل أثقالك لتضعها بين يدي الرحمن الرحيم فإياه نعبد وإياه نستعين، فتحس بنعمة اليقظة ولذة القرب ممن وسعت قدرته وعظمته سعة الكون وضخامته، فيهدأ هلعك وتطمئن نفسك.

ليس لهذه النفس المطمئنة إلا أن ترسل عبرات الفرح بالله، فتمد أغصانها المورقة حمدًا وثناءً وتمجيدًا مستزيدة بكرم الله ونعمه فتفتح سرورًا بين ضلوع العبد وهو يشعر بجواب سيده، فتقف الذات المستجيرة بجوار الله فيجيبها بإلقاء نور السلام على غصنها المضطرب بين خوف ورجاء، فإذا الطمأنينة ينفتح أمامها سهول فسيحة ينال العبد منها ما يشاء.

فيزداد شوقك إلى موضع سجودك فترمقه بعينين خاشعتين، ويتسع الإحساس بعظمة الملك في قلبك وأنت تجول في مملكته حتى يملأ عليك جميع كيانك، فأي قلب هذا الذي لا يتصدع من خشية الله ولا يذوب صخره تحت سلطان الله وعظمته، فتستبد بك رغبة قوية في الهبوط من خشية الله فتنحني راكعًا له!!

فتتهاوى عروش الغرور ركوعًا لعظمة الله في مقام تقويم النفس ورياضتها وهي منحنية إجلالًا لسيدها وكلما طال انحناؤها ازداد ارتقاؤها إلى أفق المعرفة بالله.

فإذا بدقات القلب أهدأ ما تكون وألطف ما تكون، فتنكشف عنه ظلمات الشرود ويهب عليه نسيم الخشية فترتعش كل الجوارح داخل نسيم الرهبة، فإذا بتجليات الهيبة والجلال لذي القوة والجلال تنساب على الأنفاس.

فتستقيم واقفًا متأدبًا حمدًا وثناءً اعترافًا بجميل العطاء فترجع الأنفاس إلى انسيابها عاجزة عن مقابلة كل عطاء بشكر وكل إنعام بحمد فتملؤك رغبة في الحمد خرورًا إلى الأرض ساجدًا، فيتدفق نور الجليل

على بساط سجودك فإذا بتراب الأرض جواهر تشع بجمال السكينة والطمأنينة بين يديه تعالى.

فدُقّ الباب فتلك درجات المقام الأقرب، فارتق في معارج المقربين حتى تغمرك أمطار الغفران فتمسح عنك عناء السفر وتومض حولك أطياف العطاء.

أنت في أقرب خفقة من رب العالمين في مقام لا تفسده عليك أمواج الزمان والمكان بضجاتها. فيا أيها الشارد عن قافلة السالكين، ذقْ سجدة واحدة لترى مقدار ما أنت فيه من حرمان، دع عنك عذل العاذلين ولذع الساخرين وزجر المتكبرين وانصرف بوجهك إلى مولاك. وافتح باب سجودك. فإن لك فيه مقامًا يكفيك بما يعجز عن شرحه البيان ووصفه اللسان.

ثم ترفع رأسك خاشعًا بين يدي مولاك. ترفعه دون أن ترفع بصرك. فالجليل ما زال قِبلك، يرقبك من فوق عرشه العظيم. أجلسك الكريم بين يديه وهو ذو العرش المجيد، قاصم الجبارين ومُذل المتكبرين. وكان خليقًا بالعبد ألا يُرى عند مولاه إلا واقفًا ممتثلًا يسمع

أمره ونهيه في خشوع. لكنه الله. الملك الكريم. يقبلك عنده جالسًا كأنك على ظهر براق يطوي بك السماوات!!

وتمضي في تأملات الغفران ذاكرًا متفكرًا. رب اغفر لي. رب اغفر لي. حتى يغلبك نافخ الشوق فتضرب بجناحيك إلى المقام الأقرب مرة أخرى ساجدًا لله الواحد القهار.

فيتجلى ربك بجماله وجلاله على قلبك النابض، ويأذن لك بالتحية. يا له من كرم ويا له من إنعام. تلك التحيات الطيبات المباركات إنما هي لرب العالمين. ثم تدعو مأذونًا بالسلام لحبيب الرحمن. السلام عليك أيها النبي سلامًا يوقد الأنوار في أجنحة القلب.

يا لجمال هذا العبد المُحرم في صلاته راحلًا إلى الله يبتغي فضلًا منه ورضوانًا، مضربًا عن غوغاء السكارى الشاردين في جحيم الضياع. ما أجمله وهو يمتطي راحلة النفس المطمئنة فيقطع المسافات التي تقصر عن استيعابها الأعمار فيختزلها بين ركوع وسجود في قافلة من السائرين!!

❊ ❊ ❊

المحتويات